١

الرسالة

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

[سورة العلق]

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾

[سورة المزمل]

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾

[سورة المدثر]

«فـى الأيام الأخـيرة من شـهر رمضان قبل المبعث.. بظاهر مكة.. فضاء فسـيح عند سـفح جبل حـراء.. يبدو غـار حراء فى بطن الجبل، فى نور وجلال يشملان المكان كله.. وكأن البقعة مقتطعـة لا صلة لها بما وراءها من مجون وفجور وضـلال تعج بها مكة وما وراءهـا.. على امتداد البصـر بعض الرعـاة يرعـون الأغنـام.. وعلى مقربـة من سفح الجبل اثنان منهم يتناجيان..».

الأول : (لزميله ونظره مشـدود إلى الغار) ألم أقل لك؟!.. لا بد أن محمدًا يتعبد فى الغار الآن..

الثانى : (مرددًا) يتعبد ؟!.. وما له لا يتعبد فى البيت العتيق؟

الأول : ألم تلحظ أنه لم يحلف بآلهتنا قط؟!

الثانى : (كمن تذكر) أى واللات والعزى.. و.. ولكن.. أ.. أ.. أتريد أن تقول إنه يعبد آلهة أخرى؟!

الأول : لا أعـرف.. (بقلب واجـف ونظره معلق بالغـار).. ولكن للرجل شأنًا لا نعرفه.. وقلبى يحدثنى بشىء عظيم..

* * *

«بمدخـل الغار.. محمد عليه السـلام يتضرع ناظرًا إلى السـماء.. يشمل المكان فجأة ضوء باهر غريب.. يبدو محمد عليه السـلام مأخوذًا بأمور يحسـها ولا يراهـا.. وإذ هو فـى ذهوله، يأتيه الـروح الأمين يحمل كتابًا فـى نمط من ديباج.. ويناديه».

جبريل : (للنبى).. اقرأ..

النبى : (مأخوذًا) ما أقرأ..

«جبريـــل يغط محمدًا بالكتاب غطة حتى ظن عليه السلام أنه الموت، ثم أرسله..».

جبريل : .. اقرأ..

النبى : (وقد أخذه الخوف والإجهاد) ما أقرأ؟!

جبريل : (معاودًا للنبى وهو يغطه ثانيةً) اقرأ..

النبى : (فى وجل وقد بلغ منه الإجهاد كل مبلغ) ماذا أقرأ..

«جبريل يعاود للمرة الثالثة غط النبى بالكتاب غطةً شـديدة، حتى بدا على محمد عليه السلام أنه الموت، ثم أرسله..».

جبريل : (معاودًا للنبى) اقرأ؟!

النبى : ماذا أقرأ..

جبريل : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[سورة العلق: الآيات: ١ – ٥].

(يرتفع الوحى)

* * *

«فى دار محمد عليه السلام.. السيدة خديجة تجلس بإحدى الغرف.. يدخل عليها النبى وبه روع شديد».

خديجة : (مبـادرة فى رفق) يا أبا القاسـم، أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلىَّ!

«النبى لا يزال يبدو مأخوذًا.. لا تكاد خديجة تنهى تساؤلها حتى تأخذه رعدة شديدة.. فينادى عليه السلام من حوله».

محمد : (مرتاعًا) زملونى!.. زملونى!..

خديجة : (حانية فى قلق) ماذا بك يا ابن العم ؟!

محمد : زملونى!.. زملونى!..

«تنـادى خديجة علـى من بالدار للإسـراع بدثـار.. تأتيها جارية به، فتسـرع خديجة إلى تدثير محمد عليه السلام به..».

خديجة : (وهى تدثر النبى) أفلا نبأتنى بخبرك؟!

«يهمس إليها النبى عليه السلام بما كان.. لا يفارقها اهتمامها ولا حدبها وهى تسمع.. يفرخ روع النبى عليه السلام شيئًا فشيئًا، بينما يزداد اهتمام خديجـة بما تسمع».

محمد : (كالمخاطب نفسه) لقد خشيت على نفسى!

خديجة : (مواسية للنبى فى اهتمام) كلا.. والله ما يخزيك الله أبدًا!.. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق.

* * *

«بعد فترة من الوقت فى دار ورقة بن نوفل..

ابن عم خديجة.. شـيخ طاعن، قد كف بصره أو يكاد.. تجلس إليه السـيدة خديجة وقد بدا أنها فرغت للتو من حديث لها، بينما الشـيخ مطرق يفكر».

خديجة : (متسائلة فى قلق) أسمعت ما كان من أمر ابن أخيك؟

ورقة : (وهو لا يزال مطرقًا يفكر) نعم!!

خديجة : فما ترى؟!!

ورقة : (بعـد برهـة - بحـرارة واضحة) قدوس قـدوس.. والذى نفـس ورقة بيده، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى..

(يستأنف ناصحًا مترفقًا) فقولى له فليثبت..

«تتهيأ خديجة للانصراف وتنهض.. تنصرف»

* * *

«فـى دار محمد عليه السـلام.. لا يزال نائمًا مغطى مزملاً فى فراشه.. فجأة يهتز عليه السلام قليلاً وتثقل أنفاسـه ويبدو كمن أتاه رئى وهاتف وهو بين المنام واليقظـة.. تدخل خديجة فتنظر إليـه فى حب وحدب وإشـفاق.. ولكنهـا تلـزم الهـدوء.. بينما تنسـاب إلى محمد كلمات الروح الأمين.. لا يسمعها إلاّ هو..».

جبريل : (يتلـو) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ [سورة المزمل: الآيات: ١ - ٩].

(يرتفع الوحى)

«ينهض محمد عليه السلام وقد أخذته رجفة رفيقة.. تقبل عليه خديجة شفوقة حانية.. تحاول أن تدعوه إلى النوم، ولكنه عليه السلام لا ينام ويخبرها بما عاد فأتاه»

* * *

«بعد أيام قلائل.. الرسول عليه السلام يطوف بالكعبة لا يلقى بالاً للأصنام.. يلاقيه ورقة بن نوفل.. ينتحى به لفترة.. يتناجيان ويعيد عليه الرسول ما كان.. فيبتدره ورقة بن نوفل..».

ورقة : (للنبى) والذى نفسى بيده قد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى.. ولسوف يكذبك قومك ويؤذونك، ويخرجونك، ويقاتلونك..

محمد : (متسائلاً) أومخرجى هم؟!

ورقة : (وهو يومئ بالإيجاب).. لئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه..

«يقترب الشيخ من محمد، ينحنى ويقبل وسط أعلى رأس النبى عليه السلام.. النبى يقف متأثرًا بما صنع الشيخ.. يكاد لا يدرى ما يقول..»

ورقة : (للنبى وهو يتهيأ للانصراف).. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا أوذى وعودى، وإن يدركنى يومك، أنصرك نصرًا مؤزرًا..

* * *

«بعد أيام.. محمد عليه السلام فى طريق عودته من غار حراء إلى مكة.. وبينما هو فى بطن الوادى.. إذ به يسمع نداءً يناديه فينظر محمد عن يمينه وعن شماله، وعن خلفه وقدامه، فلا يرى شيئًا.. فينظر متوجسًا إلى أعلى رأسه.. يبدو كمن شاهد أمرًا على العرض بين السماء والأرض.. فيبلغ منه الروع كل مبلغ ويسرع عائدًا إلى داره مرتاعًا.. تستقبله خديجة.. فيبادرها.. دثرونى.. دثرونى.. تسارع خديجة إلى صب بعض الماء عليه، وتدثيره.. بعد برهة يخلد إلى نوم رفيق.. فجأة تثقل أنفاسه، ويتفصد جبينه عرقًا.. تلحظه خديجة.. فلا تستطيع أن تغالب إشفاقها».

خديجة : (لمحمد فى حنو وإشفاق) ما لك يا ابن عم؟!

«محمد لا يرد، ولكنه يبدو مصغيًا لصوت لا يسمعه سواه.. تأخذه رجفة..»

خديجة : (وقد ازداد قلقها) ما لك ترتجف، وجبينك يتفصد عرقًا ؟!

«محمد لا يجيب..»

* * *

«تسرع خديجة إليه بمزيد من الدثار.. ولكن محمدًا غير ملتفت إليها.. يبدو وقد ازداد احتفاؤه بذلك الصوت الذى لا يدركه ولا يسمعه إلاه..».

جبريل : (يتلو على محمد) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾[سورة المدثر: الآيات: ١ ـ ٧].

(يرتفع الوحى)

«بعد برهة.. محمد يكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. تنظر إليه خديجة متسائلة، فيعيد عليها ما أوحاه إليه جبريل، فتنطلق بدورها مكبرة: الله أكبر.. الله أكبر.. يظهر جبريل لمحمد فلا تراه خديجة».

جبريل : (لمحمد) أقرئ خديجة السلام من ربها..

محمد : (هاتفًا فى رفق) يا خديجة، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك!

خديجة : (فرحة مستبشرة وقد أشع وجهها بنور الإيمان). الله السلام، ومنه السلام.. وعلى جبريل السلام..

* * *

«محمد فى قلق مقيم.. لا يطمئن ولا يهدأ.. وكيف والوحى فى أول عهده به.. لا يكاد يخلو إلى نفسه حتى يوافيه الصوت الذى يناديه.. ما يكاد يصل إلى داره، حتى يتجه بخواطره إلى

زوجه خديجة».

محمد : (لخديجـــة) يـــا خديجة، إنى إذا خلـوت وحدى سمعت نداء، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرًا!!!

خديجة : معـــاذ الله!.. مـــا كان الله ليفعل بك.. فوالله إنك كما قلت لك، لتـــؤدى الأمانة، وتصل الرحـــم، وتصدق الحديث.. وإنما هو...

«تدخل من تســـتأذن لأبى بكر.. فيؤذن له.. وتتوقف خديجة عن المضى فى حديثها.. يدخـل أبو بكـر.. فتروى لـه خديجـة ما كان من حديث محمد لها.. ثم تتجه إليه قائلة..».

خديجة : (لأبى بكر) يا عتيق، اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل..

«أبو بكر يمسك بيد محمد فى حب ومودة، وينطلقان معًا إلى ورقة بن نوفل.. تبدو خديجة وقد اطمأنت إلى ما أشارت به.. ألم يكن لورقة من قبل معهما حديث؟!!

* * *

«فـــى دار ورقة بـــن نوفل.. وقـــد جلس معه محمد وأبو بكر.. يقصان عليه أن محمدًا لا يكاد يخلو إلى نفســـه، حتى يســـمع مناديًـــا يناديه: «يا محمد».. فينطلق محمد حتى صار يخشى من هذا النداء الذى يوافيه.. فيعيد الشـــيخ استفسار محمد فيما يسمعه، فيقول له محمد..».

محمد : (لورقة) إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى:
«يا محمد»، «يا محمد».. فأنطلق فى الأرض.

ورقة : (مواسيًا ناصحًا) لا تفعل . إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك ..

«ينصت محمد، ولا يجيب.. ولكن يبدو على وجهه الرضاء بما سمع.. بعد برهة، ينهض محمد وأبو بكر. فينصرفان..».

* * *

«بعد أيام.. محمد فى خلوته.. يسمع الصوت من خلفه يناديه.. يثبت.. فإذا بالروح الأمين يلقى إليه من كلمات ربه ..».

جبريل : (مناديًا) يا محمد، قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾[الفاتحة: الآيات ١- ٧].
(مستأنفًا) قل لا إله إلا الله..

محمد : (مرددًا) لا إله إلا الله..
«يرتفع الوحى.. ومحمد يردد لا إله إلاّ الله.. لا إله إلا الله..».

* * *

«دار ورقة بن نوفل.. محمد يقص عليه ما

سمعه، فما يكاد الشيخ يسمع، حتى يبتدر النبى..».

ورقــة : كما قلت لك من قبل.. أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذى بشر به عيســى ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك كما أخبرتك نبى مرسل..

«محمد ينصت باهتمام».

«يمضى محمد منصرفًا، بينما يبدو الشــيخ لا يــزال مأخوذًا بجلال ما سمعــه من أخبار النبوة والنبى اللذين قرأ عنهما فى التوراة والإنجيل..».

* * *

«محمد بأعلى مكة.. يأتيه جبريل، فيهمز له بعقبــه فى ناحية الوادى.. يتتبعه محمد بنظره، فيشاهد عينًا تنفجر منه.. يشير جبريل إلى محمد ليحاكيــه، ويبــدأ جبريل فى الوضــوء للتطهر، فيتوضأ محمد مثلما فعل.. ثم يقوم جبريل فيصلى بــه ركعتين، ويصلى محمد بصلاتــه.. فما يكاد يفعل، حتى ينصرف جبريل».

«محمــد ينطلــق إلى داره، فيدعــو خديجة، ويعلمها الوضوء والصلاة كما أراه جبريل.. فتتوضأ خديجــة، ثــم يصلــى بها محمد، فجعلت تصلى بصلاته.. يقرآن الفاتحة فى كل ركعة..».

* * *

«بعـد أيام.. محمد وخديجـة يصليان بالدار يلمحهما على بن أبى طالب.. غلام فى العاشرة.. يقف علىٌّ مدهوشًـا بما يـراه.. فما يكاد محمد وخديجـة يفرغان من الصلاة حتـى يتجه على بحيرته إلى محمد يستوضحه ويتلقى عنه..».

علـى : (لمحمد مدهوشًا) لمن تسجدان؟!!!

محمد : إنما نسـجد لله الذى بعثنى نبيًـا وأمرنى بأن أدعو الناس إليه، وإنى أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شـريك له، وإلى ترك الأصنام من أمثال اللات والعزى..

«علـىّ يسـمع، ولكن لا يقول شـيئًا.. فيتلو عليه محمد القرآن، بينما علىّ.. الغلام.. يسمع مأخـوذًا بجلال ما يسـمعه.. بعد فترة وقد حان ميعاد النوم، فينـام على نومًا مضطربًا، تختلف إليه فى منامه الأفكار، أيشاور أباه قبل أن يتبع محمدًا، ولكنه يصبـح وقد فتح الله عليه وجمع أمره، فيحادث نفسه..».

علـى : (محدثًا نفسـه) لقـد خلقنى الله مـن غير أن يشـاور أبا طالب، فما حاجتى أنا إلى مشاورته لأعبد الله؟!!

«يتجـه إلى محمد، فيسـلم بين يديه.. يعلمه محمـد التطهر بالوضوء، والصـلاة.. ويقرأ عليه فيما يعلمه فاتحة الكتاب.. وكيف يجب أن تُقرأ فى كل ركعة..

* * *

«بالكعبة بعد أيـام.. عفيف الكنـدى يجلـس مـع العبـاس بن عبد المطلب.. يرى عفيف شـابًا مقبـلاً، يرمـى ببصره إلى السـماء، ثم يسـتقبل الكعبـة.. فلم يلبث حتى جاء غـلام فـى نحـو العاشـرة ، فقـام عن يمينـه.. ثم جاءت امرأة، فقامت خلفهما.. يلحظ عفيف الكندى أن الثلاثـة يأتـون بحركات لا يفهمها.. يركع الشاب فيركع الغـلام والمـرأة، يرفـع الشـاب فيرفـع الغلام والمرأة.. يخر الشـاب سـاجدًا، فيسـجد الغلام والمرأة معـه.. وعفيف الكندى ينظـر إليهم وإلى العباس وقـد بلغت به الدهشـة كل مبلغ..».

عفيف : (للعباس) يا عباس، هذا أمر عظيم!!

العباس : (مرددًا) أمر عظيم!!

عفيف : يا عباس، ما هذا الدين؟!!

العباس : (وهو يشير إلى محمد) أتدرى من هذا؟

عفيف : لا.

العباس : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخى (يستأنف وهو يشير إلى على) أتدرى من هذا؟!!

عفيف : لا.

العباس : هذا على بن أبى طالب بن عبد المطلب ابن أخى..(يستأنف وهو يشير إلى المرأة) أتدرى من هذه المرأة التى خلفهما؟

عفيف : لا.

العباس : هـذه خديجة بنـت خويلد، زوجة ابن أخـى محمد.. وهو يحدث بأن الله هو رب السماء، وأنه أرسله بهذا الدين.. وقد دعاهما إلى هذا الذى تراهما عليـه.. وقـد صدقـاه وآمنا به.

«ينظر عفيف مأخوذًا لا يدرى ما يقول.. ولا ينطق بحرف..».

* * *

«بعد أيام.. فى شعاب مكة، محمد وعلى يصليان.. يمر بهما أبو طالب.. فينتظر حتى يفرغا..».

أبو طالب : (لمحمد.. فى رفق) يا ابن أخى، ما هذا الدين الذى أراك تدين به؟!

محمد : أى عم، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم.. بعثنى به الله رسولاً إلى العباد، وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من يجيبنى ويعيننى عليه.

أبو طالب : (حانيًا) يا ابن أخى ، إنى لا أستطيع أن أفارق دينى ودين آبائى وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك أحدٌ بشىء تكرهه ما حييت..

«أبو طالب ينظر إلى ابنه على وفى عينيه تساؤل لا يخفى على ابنه علىّ..».

على : (لأبيه) يا أبه، آمنت بالله، وبرسوله وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته..

أبو طالب : (وقد فكر قليلاً).. أى بنى، أما أنه لا يدعوك إلاّ إلى خير، فالزمه..

«ينصرف أبو طالب..»

* * *